مقالات الإسلاميين

واختلاف المصلين

تأليف

شيخ أهل السنة والجماعة الإمام

أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري

المتوفى في عام ٣٣٠ من الهجرة

بتحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

الجزء الأول

الطبعة الأولى

فى عام { ١٣٦٩ هـ
١٩٥٠ م

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على سابغ نعمائه ، وصلاته وسلامُه على خاتم أنبيائه ، وعلى آله وصحبه وأوليائه .

وأما بعد ؛ فإنى منذ عهد غير قريب وجدتُ من وقتى فراغا يتسع لدراسة دقيقة لكتابَىْ شيخ الإسلام «أبى العباس أحمد بن عبدالحليم الحرّانى الدمشقى الحنبلى» المعروف بابن تيمية المتوفى فى عام ٧٢٨ من الهجرة ، وهما كتاب «منهاج السنة المحمدية ، فى نقض كلام الشيعة والقَدَرية » ، وكتابُ «موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول» ، فأخذتُ نفسى بأن أقرأ كل يوم عدة أوراق من أحد الكتابين ، وأن أقف عند نهاية كل مبحث وقْفَةَ فاحصٍ متدبِّرٍ ، يُحِبُّ أن يُفيد مما يقرأ ، وكنتُ أجد فى كل يوم من غزارة علم الشيخ ، وسَعَة اطلاعه على ما ألَفَ الناسُ وما قالوه ، وما نُسِب إليهم ، ومديد باعه فى الحِوَار والجدل ، ورجاحة عقله التى تَنْخُلُ الآراء والأقاويل ، وتُهَرِّجُ زائفها ، وقوة عارضته فى إقامة الحجة ، مالا يُقْضَى العجبُ منه . وقد لَفَتَ نظرى يومئذ أن الشيخ لا يفتأ يذكر شيخ أهل السنة والجماعة أبا الحسن علىّ بن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل ابن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبى بُرْدَةَ عامر بن أبى موسى عبد الله بن قيس ، الأشعرى ، المتوفى فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى ، ويُثنى عليه ، ويصفه بأنه أقرب إلى مذهب إمام أهل هذه الملة ، الصابر على قضاء الله ، المحتسِبِ أجْرَهُ على الله تعالى «أحمد بن حنبل» من كثيرٍ من أصحاب أحمد وأتباعه المنتسبين إليه ، وبأنه أبرع مَنْ كتب فى المقالات وأثبتهم وأوثقهم ، ويذكر مؤلفاته بما هى خليقة به من الثناء والتبجيل

لفتَ هذا الثناء نظرى إلى مؤلفات أبى الحسن الأشعرى عامة ، وإلى كتابه « مقالات الإسلاميين ، واختلاف المصلين » خاصة ، فلم أكد أنتهى من قراءة الكتابين حتى تاقت نفسى إلى قراءة كتب الأشعرى ، ومن بينها « كتاب المقالات » ، فما شرعت فى ذلك حتى أدركت السرّ الذى دفع ابن تيمية إلى كثرة الإشارة إليها ، والعناية بها ، والاحتفال لها ، والنقل عنها .

وما زالت همتى مصروفة ، منذ ذلك الوقت ، إلى كتاب «المقالات» ، حتى وجدت فرصة سانحة لنَشْرِه على الوجه الذى يرضى عنه أهلُ العلم ، فاهْتَبَلْتُ هذه الفرصة ، واجتهدت فى تحقيق أصله ، والتَّنَوُّقِ فى هذا التحقيق : بضبط ما يحتاج إلى الضَّبْطِ منه ، وبشرح بعض مسائله شرحاً وَسطاً بين الوجيز والبسيط ، وبالترجمة لأعلامه ترجماتٍ مختصرةً ، وبالدلالة على مواطن البحث فى الكتب التى صُنِّفَتْ فى هذا الموضوع ، وفى كتب التاريخ أيضا ، إذ كان لكثير من أهل هذه المقالات يَدٌ بعيدةُ الأثر فى مَجْرَى حوادث التاريخ ، كما بينتُ كثيراً مما وقع فى أصول هذا الكتاب من أخطاءٍ فى أعلام الأناسىّ ، وفى حوادث التاريخ مع إبقائى عبارَةَ الكتاب على حالها فى الأعمّ الأغلب ، وسلختُ فى هذا العمل الجليل عامين ، أو أكثر من عامين بقليل .

وإنى لأرجو — بعد هذا كله — أن أكون قد وفيت ببعض حق هذا الكتاب الذى يعتبر أقدم ما وصل إلى أيدينا من الكتب المفصلة بَعْضَ التفصيل فى هذا الموضوع ، والذى يُعَدُّ بحقّ أولىٰ ما يجب أن تتسارع العزائم إلى قراءته ، وإتقان دراسته ، وإن كتاباً يُوَشّى ديباجته شيخُ أهل السنة والجماعة ، وقدوة علماء هذه الأمة « أبو الحسن الأشعرى » ويتلقاه جَهَابذة أهل العلم بالقبول ، ويحتفلون له ، ويُثْنُونَ عليه وعلى مؤلفه ؛ لحقيقٌ بما يُبذل فى تحقيقه وفى دراسته من وقتٍ وجَهْد .

ربنا اغْفِرْ لنا ، ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رَءُوفٌ رحيم .

ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

كتبه المعتز بالله تعالى وحده

محمد محيى الدين عبد الحميد

مصر الجديدة : فى يوم الاثنين المبارك { ١٤ من ذى الحجة ١٣٦٩ / ٢٥ من سبتمبر ١٩٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاةُ والسلامُ على رُسُل الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

١

كان العالم يوم بعث الله رسولَه بالهدى ودين الحق يتيه فى بَيْدَاوَاتٍ من ظُلَم الجهل ، والتقليد ، وفوضى الأخلاق ، وانتكاس أُسُسِ الاجتماع ؛ فالعرب — وهم قومُهُ ، ومنهم أهلُه وعشيرتُه الأدْنَوْنَ — أمة عريقة فى الجاهلية الجهلاء ، واغلة فى الوثنية ، ليست لهم قَدَمة ولا سابقة فى الرقى الاجتماعى ، ولا لهم عاطفة ولا وازع يصرفهم عن المغاورة والتكسب من طريق النهب ، وشنّ الحروب ، والاعتداء على الحقوق والحرمات ، ووأد البنات ، وما أشبه ذلك من دنىء الفعال ، ولا لهم من حَصَافة العقل ، ورقىّ الإدراك ، ونور المعرفة ما يحول بينهم وبين عبادة الأصنام ، والتقرب إليها ، وإتيان السَّحَرة والكهنة والعرّافين والمُمَخْرِقِينَ يلتمسون عندهم المعرفة وأخبارَ الغيب ، والفصلَ فى أسباب النزاع والخصومات ، ومَنْ كان منهم ذا دين فإنما صار دينه إلى جُمَل محرفة ، وعبارات مُبَدَّلة ممسوخة مما وصمه رؤساؤهم وأولو الأمر منهم ؛ فهؤلاء قوم زُيِّنَ لهم سوء عملهم فرأوه حسنا فاعتقدوا التثليث ، والحلول ، والوساطة بين الخالق والمخلوق ، وهؤلاء قوم تَخَلَّوْا عن عقولهم ، ودانوا بما ابتدعه أحبارهم من التجسيم وغير التجسيم مما لا يليق بالواحد القهار ، وهؤلاء قومٌ عبدوا الأجرام العُلوية ، ونصبوا لها الهياكل ، ورصدوها ، وقدسوها ، وغير العرب شر من العرب فى ذلك : منهم الثَّنَوية ، ومنهم عبدة النار ، ومنهم الدهريون والطبيعيون ، ومنهم منكرو ما وراء الحس ، ومنهم منكرو النبوات ، ومن كان يتديَّنُ دينا منهم فليس هو بأهْدَى ممن يتديَّنُ من العرب ، ولا بأقْوَمَ سبيلا .

فى وسـط هذا الاضطراب الاجتماعى والدينى بعث الله تعالى عبـده ورسوله محمد بن عبد الله بالهدى ودين الحـق ، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، فأقام الحجـة ، وأيقظ العقل ، وأذاع فى الناس سلطان هـذا العقل الذى حَقَرُوه ، وحاكمهم إليه ، ودعاهم إلى نَبْذ التقليد ، وألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، وسلك لهذا ونحوه مسلكا لا يَدِقُّ على أذهان العامة ، ولا يرتفع عن مستوى إدراكهم ارتفاعا يباعد بينهم وبين عـلم حقيقة ما يدعوهم إليه ، ولا يُسِفُّ حتى يستبذله الخاصة ويستنكروه ، انظر إلى هذا الدعاء الذى يمجد فيه العقل والعلم ، ويقيم الحجة الواضحة فى هدوء ورفق ، فى قول الله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبـد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تَوَلَّوْا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجُّون فى إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولىُّ المؤمنين) فإذا أنت قرأت هذه الآيات فتأمل فى يُسْرها وسهولة مَدْخلها إلى العقل ، وأنها لا تحتاج إلى أن تستأذن لتلج أدقَّ المَوَالج ، وتؤثر أبعد الأثر ، ثم اقرأها مرة ثانية وتدبر : هل تجـد أبرع من عبارتها ، وأقوم منها حجة ؟ وهل تجد للتسلسل المنطقى الذى ينشده أهل البحث مثالا تضرب به له خيراً من هـذه الآيات ؟ فإذا أنت اطمأننت إلى هذا كله فاعلم أنك واجد فى كل ما أوحى الله به إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى كل ما أجراه — سبحانه ! — على لسانه من سنته ، وفى كل ما عمل به حياتَهُ كلها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ، اعلم أنك واجد فى كل أولئك أصْدَق المُثُل وأعلاها لهذه الدعوة التى أشرنا إلى بعض خصائصها .

ولم يلبث العرب ـ حين رأوا أن قد دمغتهم الحجة ، وأخذت عليهم سُبل الالتواء والمعارضة ـ أن دانوا لهذه الدعوة تباعاً ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، فرأوا النبى صلى الله عليه وسلم يصف لهم ربه ـ سبحانه ! ـ بما وصف به نفسه فى كتابه الكريم ، وبما أجراه على لسانه من سنته ، فلم يسأله أحد منهم ـ على اختلاف عقولهم ـ عن شىء من ذلك ، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من كل ماعلموا أن لله فيه أمراً ونهياً ، وكما سألوه عن أحوال الآخرة وعن الجنة والنار ، نقول « لم يسأله أحد منهم عن شىء مما وصف به ربه » لأن هذا من الأمور التى تتوفر الدواعى على نقله لو أنه حدث ، ولم يُنقل لنا أن أحداً التبس عليه فهمُ شىء من ذلك فأنشأ يسأل ليكشف شبهة ، أو يزيل لَبْساً ، أو يَشْرَحَ غامضا ، كما نُقِلت الأحاديثُ الكثيرة التى تتضمن السؤالَ عن أحكام الحلال والحرام وعن أحوال القيامة وعن المَلاحِمِ والفِتَنِ ونحو ذلك ؛ فدل هذا كله على أنهم فهموا ذلك وعَقَلُوهُ فى يُسْرٍ وهَوَادةٍ من غير أن يُفَلْسفوه أو شيئاً منه ، و « مَنْ أمْعَنَ النظر فى دواوين الحديث النبوى ، ووقف على الآثار السَّلَفية ، عَلِمَ أنه لم يردْ قطُّ ـ من طريقٍ صحيح ولاسَقيم ـ عن أحدٍ من الصحابة رضى الله عنهم ، على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شىء مما وصف الربُّ ـ سبحانه ! ـ به نفسَه الكريمةَ فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، نعم ، ولا فَرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذاتٍ أو صفة فعلٍ ، وإنما أثبتوا له تعالى صفاتٍ أزليةً من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجودِ والإنعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلامَ سَوْقاً واحدا ، وهكذا أثبتوا ـ رضى الله عنهم ! ـ ما أطْلَقَهُ الله ـ سبحانه ! ـ على نفسه الكريمة من الوَجْه واليد ونحو ذلك ، مع نَفى مُماثلة المخلوقين ؛ فأثبتوا ـ رضى الله عنهم ! ـ بلا تشبيه ، ونَزَّهوا من غير تعطيل ، ولم

يتعرض — مع ذلك — أحد منهم إلى شيء من هذا ، ورَأَوْا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحدٍ منهم ما يستدل به عليه وحْدَانيَّة الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى ، ولا عرف أحد منهم الطُّرُقَ الكلامية ، ولا مسائلَ الفلسفة [1] » .

على هـذا ، وفى هذا الموضوع الذى ثارت فيه مَحَاجَةُ الكلام فيما بعدُ ، انتهى القرنُ الأول ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ تبعهم بإحسانٍ فهموا ما ذكره الرسولُ عن ربه ، ولم يروا بأنفسهم حاجة إلى الفلسفة وقواعدها ولا إلى مباحث الكلام التى تمتُّ بأوثق الأسباب إلى الفلسفة وقواعدها ، فكتاب الله تعالى الذى حَدَّثهم عن ربهم ، وفَرَضَ عليهم حقوقاً يؤدونها إلى ربهم ، وحقوقاً يؤديها بعضهم إلى بعض ، هـذا الكتابُ عربى مبين ، وهم قد فهموا العبارةَ التى فرضت عليهم هذه الحقوق وتلك ، وما احتاج من هذه العبارة إلى كشفٍ سألوا عنه رسول الله فبينه لهم ، فلماذا لا يفهمون العبارة التى يُحَدِّثهم الكتابِ الكريم فيها عن ربهم ؟ وكيف سكتوا عن طلب البيان إن لم يكونوا قد فهموها أو شيئاً منها ؟ ولسانُ الرسول عربى مبين ، وشأنُ ما تحدَّث به إليهم شأنُ ما أُنْزِلَ عليه من القرآن الكريم ، وهم — فى الأكثر — عَرَبٌ ، يتكلمون العربية الفُصْحَى ، ويفهمونها إذا خُوطِبُوا بها ، فليفهموا القرآن والسُّنة على النحو الذى يَفْهَمُون به ويُفْهِمُونَ ، ومَنْ كان منهم غير عربى فليس يحتاج لأن يفهم مثل ما فهموا إلا إلى معرفة اللسان العربى وإدراك خصائصه ، فإذا تيسر له ذلك فسبيلُه سبيل أهلِ العربية الأَصِيلِينَ .

— ٢ —

ونَبَتَ فى القَرْن الأول رجلان شَغَلاَ الناسَ بما لم يكونوا يعرفونه عن نبيهم وعن صحابته الأخيار رضوان الله عليهم أجمعين ! شغلا بعض الصحابة ، وشغلا

(١) من كلام العلامة المقريزى فى كتابه « الخطط والآثار » (٢/٣٥٦ بولاق).

كثيرا من التابعين ، وشغلا بعض أهل الأقطار التى ارتفعت فيها راية الإسلام ، وشغلا بعض أهل المدينة حاضرة بلاد الإسلام ومَهْبِط الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار مُهَاجره ومَثْوَى جُثْمَانه الطاهر ، وكلا الرجلين كان دخيلا فى الإسلام فاسِدَ الطَّوِيَّة ، ولعل انتصار الإسلام والمسلمين فى مَوَاطن القتال كلها قد ولَّد فى أنفسهما من الحَسِيكة والضِّغْن ما جعلهما يتلمَّسان له الفسادَ بالدَّسِّ والوقيعة .

أما أحدهما فرجل نصرانى من أهل العراق يقال له «سوسن» أظهر الإسلامَ وصحب مَعْبَدَ بن عبد الله[1] الجُهَنى البَصْرِىَّ ونَفَثَ فى صَدْره سمومَه ، وعلمه القول بالقدر ، وزيَّنه له ، فكان معبدٌ هذا أولَ من قال بالقدر فى الملة المحمدية ، وقدم مدينة الرسول فأفسد بها ناساً ، فاشتغل أهل زمانه بتحذير الناس منه ، فروى أن ابن عُمَرَ رضى الله عنهما حين بلغه شأنه أعلن البراءة منه ، وروى أن الحسن كان يقول : إياكم ومعبدا فإنه ضالٌّ مُضِل ، وروى أن مسلم بن يَسَار كان يجلس إلى سارية فى المسجد يقول : إن معبدا يقول بقول النصارى ، وما زال كذلك حتى أخذه عبد الملك بن مروان فى سنة ثمانين[2] فقتله وصَلَبه بدمشق[3] .

وقد أخذ عن معبدٍ الجهنىِّ غَيْلَانُ بن مروان (أو ابن مسلم) الدمشقىُّ فقال بالقدر خَيْرِه وشره : إنه من العَبْد ، وقال فى الإمامة : إنها تصلح فى غير قريش ،

---

(١) لمعبد الجهنى ترجمة فى تاريخ الإسلام للذهبى (٣/٣٠) وفى تهذيب التهذيب (١٠/٢٢٥) وقد اختلف فى اسم أبيه واسم جده ؛ فيقال : هو معبد بن عبد الله بن حكيم (أو ابن عكيم ، أو ابن عليم) ويقال : معبد بن عبيد الله بن عويمر (أو ابن عويم) ويقال : معبد بن خالد ، ويقع اسم معلمه النصرانى فى بعض الأصول « سويس » ويقال : سنسويه

(٢) ويقال : مات قبل التسعين

(٣) وانظر التاريخ الكامل لابن الأثير (٤/١٨٩) والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (١/٢٠١)

وإن كلّ مَنْ كان قائما بالكتاب والسنة كان مستحقا لها ، وإنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة . وكانت نهاية أمره أن أخذه هشام بن عبد الملك بن مروان فأمر بقطع يديه ورجليه(١).

وأما الآخر فرجل يهوديّ احترقت أحشاؤه من نَصْر الله تعالى المؤمنين فاصطنع الإسلامَ وهو يضمر أن يكيد له ، وذلك هو عبد الله بن وهب بن سبأ ، المعروف بابن السوداء ، وقد تكلمنا عن هذا الرجل كلاما وافيا فى حواشينا التى أكملنا بها مباحثَ هذا الكتاب ، وتتلخص شرور هذا الرجل فى أنه أحدث فى هذه الأمة ثلاثة أمور ، كان لكل واحد منها الأثر البالغ فى تفريق كلمتها ، وتَشَعُّثِ أمرها : الأمر الأول : كان هو أول مَنْ أحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه بالإمامة ، فعلى وَصِيُّ الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته على أمته من بعده بالنص ، الأمر الثانى : كان هو أول من أحدث القولَ برَجْعَة على رضى الله عنه إلى الدنيا بعد موته وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا ، والأمر الثالث : كان هو أول من أحدث القولَ بأن عليا — رضى الله عنه ! — لم يُقْتَل ، وأنه لا يزال حيا ، وأنه يسكن السحاب ، وأن الرعد صَوْته ، وأن البَرْق سَوْطُه ، وأن فيه جُزْءا إلٰهيًّا ، وأنه لابد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما مُلئت جَوْراً ، وأكثر هذه القضايا مأخوذ عن اليهودية التى كان يتعارفها قومُه يومئذ ، بل إنه كان يستدل لمن يَخْدَعُهم على صحة هذه القضايا ببعض ما عُرِف من أحوال موسى صلى الله عليه وسلم مع شىء من التمويه والتحريف .

وعن هذه الآراء الفاسدة التى نفث سمومَها عبدُ الله بن سبأ هذا تفرعت آراء كثير من الفرق ، فمن تعاليمه تشعبت أقاويلُ الغلاة من الرافضة ، أفليس كثير منهم يذهبون

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٢٨٥

إلى أن الإمامة موقوفة على قوم بأعيانهم كقول الإمامية : إنها محصورة فى الأئمة الاثنى عشر ، وكقول الإسماعيلية : إنها محصورة فى ولد إسماعيل بن جعفر الصادق

ثم أليس كثير من الإمامية يذهبون إلى القول بغَيْبَة الإمام ورَجْعَته إلى الدنيا بعد الموت ، وهو ما يشير إليه قولُ كُثَيِّر بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزة :

وسبط لا يذوق الموت حتى يقودَ الخيلَ يقْدُمها اللواء
تغيَّبَ لا يُرَى فيهم زماناً بِرَضْوَى عنده عَسَلٌ ومَاء

وقولُ السيد الحميرى :

يُغَيَّبُ عنهمُ حتى يقولوا تَضَمَّنَهُ بِطيبَةَ بطنُ لَحْدِ

ثم أليس من هؤلاء الإمامية قومٌ يذهبون إلى أن الجزء الالهى يحلُّ فى الأئمة بعد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ! ـ وأنهم بهذا استحقوا الإمامة دون غيرهم ؟ وعلى هذا الرأى كان ـ فيما بعد ـ اعتقادُ دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر .

وابنُ سبأ هذا هو الذى أثار فتنة أمير المؤمنين ذى النورين عثمان بن عفان ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ وما زال يُذْكِى لَهَبَهَا ، ويجمع لها أوْشَابَ الناس وطَغَامهم ، حتى قُتل الخليفة المظلوم ، وكان له أتباعٌ كثيرون فى معظم الأقطار ، فلذلك كثرت الشيعة ، وما زال أمرهم يَقْوَى وعددهم يكثر .

— ٣ —

وفى القرن الأول ـ أيضاً ـ انفصلت شُعْبة من شيعة على بن أبى طالب عنه ، وناصَبَته العداوة ، وجمعت له الجموع ، وأشعلت شُوَاظ الفتنة ضده ، بعد ما كانت تُفَدِّيه بالأنفس والأموال ، و بعد ما كانت ترى طاعته مَغْنَماً ، وهؤلاء هم الخوارج الذين شايعوا عليا ـ رضى الله عنه ! ـ أولَ الأمر على قتال معاوية وأهل الشام ، حتى إذا

كان النصرُ منه قابَ قوسَيْن أو أدنى أظهروا الانخداع بخديعة عمرو بن العاص وحَمَلُوا عليا على قبول التحكيم ، وعلى أن يُنيبَ عنه أبا موسى الأشعرى ، ولم يقبلوا التريُّثَ حتى تتم لهم الغَلَبَةُ على أهل الشام ، كما لم يقبلوا أن يختار على نائبَهُ كما اختار معاوية نائبَه ، فلما أذعن لهم على وأصحابُ على وقبلوا كل ما طلبوه إليه ، وتمت مهزلة التحكيم ؛ راحوا يُعْلنون كفر على وكفر كل من قبل تحكيم الرجال ، ولم تنجع فى هؤلاء القوم حجج المحتجين ولا نصيحة الناصحين ، وأبوا أن يفيئوا إلا أن يعلن على أنه كَفَرَ بتحكيمه الرجال وأنه تائب إلى الله تعالى من هذا الكفر ، وما كان على ليَرْضى إعلان ذلك وهو ماحكم إلا ليدفع ثورة كانت توشك أن تلتهم الأخضر واليابس ، وهو يعتقد ـ فوق ذلك ـ أنه لو حكَّم مختارا طائعا لما كان فى ذلك كفر ولا شبهة كفر ، بل ولا معصية ولا شبهة معصية .

والذى يحار فيه عقل الأريب من أمر هؤلاء أنهم خرجوا فجأة ومن غير سابقة خلاف ، وأن ما خرجوا من أجله كانوا هم الدعاة إليه والمتشبثين به ، وأنهم خرجوا باسم الحرص على أحكام الله تعالى والتشدد فيها والرغبة الصادقة فى إنفاذها ، وأبْسَط الناس تفكيراً يجد فى حالهم ما يريبُ أحسن الناس ظنا بهم .

فهل كَذَبَنا المؤرخون جميعا ، ومنهم الشيعى ومنهم غير الشيعى ، فقصوا علينا أحداثهم على صورة يظهر فيها الغُلُو فى الاستمساك بالباطل والتشدد فيما لا ينبغى التشدد فيه ؟ وإذا صح هذا عن المؤرخين الذين هواهم عَلَوى فكيف يصح عن الثقات الذين كتَبُوا لوجه الحقِّ ؟ وكيف يصح ذلك ولم يكتب هؤلاء المؤرخون ما كتبوا فى ظل دولة للعلويين أو لأنصار العلويين ؟ وإنما كتب مَنْ وصلت إلينا مؤلفاتهم فى ظل قوم أقَلُّ مايقال فيهم : إنهم ما كانوا يأبَهُونَ لماضى العلويين ، وإنه يستوى عندهم أن يثبت أن العلويين كانوا من قَبْلُ ظالمين أو مظلومين .

فإن لم يكن المؤرخون قد كذبونا ، وهو أرْجَحُ الاحتماليين عندنا ، فهل كان فى شيعة على الذين حاربوا معه وانتصروا له مَنْ كان يُضمر أن ينتقض عليه متى لاحت له الفرصة ؟ أو يخلق الفرصة خلقاً إن لم تسنح له ، ونريد أن نقول:

هل كان عبد الله بن وهب بن سبأ قد أفضى بذات نفسه إلى بعض شيعة علي وأفهمهم أن ما يُمَخرق به على الناس : من تمجيد على وتأليهه تارةً ، والقول بأنه وصى الرسول تارة أخرى ، إنما هو خُدْعة ابتدعها لينتزع بها إعجاب العامة من أصحاب علي ، وهو في ـ حقيقة الأمر ـ يريد أن يُفْسِد على علي أصحابه ، وأخذ عليهم العهود أن يفعلوا هم ذلك إن اخترمته المنون قبل أن يبلغ مايريد ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد نبتت نابتة الخوارج في أواخر حُرُوب صفين ، بين أهل العراق شيعة علي ، وأهل الشام شيعة معاوية بن أبي سفيان ، واستشرى شرهم ، وصاروا من بَعْدُ حزبا كثير العدَد ، وخلطوا شؤون الدين بشؤون الدولة ، فكانت لهم آراء في كثير من مسائل الدين أصولِه وفروعِه ، وكانت لهم آراء في الخروج على الدولة والانتقاض على الأمراء ، أو الكف عن ذلك مما تجدهُ مُفَصَّلاً في هذا الكتاب .

* * *

— ٤ —

وفي أخريات القرن الأول ـ أيضا ـ أو أوائل القرن الثاني ظهر رجل ، يقال له « جَهم بن صفوان » بترمذ و بلاد المشرق « فأورد على أهل الإسلام شكوكا أثَّرَتْ في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولَّد عنها بلاء كبير ، فكثر أتباعه على أقواله التي تؤول إلى التعطيل »[1] ، فأخذ يعلن في الناس أن « لمقدورات الله تعالى ومعلوماته غاية ونهاية ، وأن لأفعاله آخراً ، وأن الجنة والنار تفنيان ، و يفنى أهلُهما حتى يكون الله تعالى آخراً لاشيء معه كما كان أولا لاشيء معه »[2] و« أن الإيمان : هو المعرفة بالله فقط ، والكفر : هو الجهل بالله فقط ، وأنه لا فعل

---

(١) من كلام المقريزي عنه (٢/٣٥٧)

(٢) انظر كتابنا هذا (١ / ٢٢٤)

لأحد فى الحقيقة إلا الله وحده ، وأنه هو الفاعل ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز ، كما يقال : تحركت الشجرة ، ودار الفلكُ ، وزالت الشمس» (١) ونفى أن يكون لله تعالى صفة (٢) ، وذهب إلى أن علم الله تعالى محدث ، وإلى القول بخلق القرآن ، ومن ثمة نسبه قومٌ إلى مذهب المعتزلة ، « وجهمٌ عند المعتزلة — فى سوء الحال ، والخروج من الإسلام — كهشام بن الحكم » (٣) وقد أكبر أهلُ الدين بدعته ، وتمالأوا على إنكارها ، وتضليل أهلها ، وحذروا الناس من الجهمية ، وعادوهم فى الله تعالى ، وذموا من جلس إليهم ، ومن قال بمقالتهم ، أو انتحل نحلتهم .

وأراد الله تعالى أن يقود جهماً إلى حَتْفه ، فخرج مع الحارث بن سُرَيج فى سنة ثمان وعشرين ومائة من الهجرة ، على خلفاء بنى أمية ، وكانت خلافتهم قد آلت إلى مروان بن محمد ، فامتنع الحارث بن سريج من قبولها ، وتكلم فى مروان ، فجاءه سَلْم بن أحْوَز أميرُ الشرطة ، وجماعةٌ من رؤوس الأجناد والأمراء ، وطلبوا منه أن يكفَّ لسانه ويده ، وألا يفرق جماعة المسلمين ، فأبى ، وبرز ناحية عن الناس ، ودعا نصر بن سيار — وكان نائب خراسان — إلى ماهو عليه من الدعوة — زعم — إلى الكتاب والسنة ، فامتنع نصر من موافقته ، واستمر هو على خروجه على أهل الإسلام ، وأمر جَهْمَ بن صفوان أن يقرأ كتاباً فيه سيرة الحارث بن سريج على الناس ، وبعد خطوب تناظر نصر بن سيار والحارث ابن سريج ، ورضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان ، فحكما أن يعزل نصر ، ويكون الأمر شورى ، فامتنع نصر من قبول ذلك ، ولزم الجهم قراءة سيرة الحارث بن سريج على الناس فى الجامع والطرق ، فاستجاب له خلق

---

(١) أنظر كتابنا (١ / ٣١٢) (٢) المقريزى (٢ / ٣٥٧)
(٣) انظر كتاب الانتصار فى الرد على ابن الراوندى (١٢٦)

كثير ، وجمّ غفير من الناس ، فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش ، عن أمر نصر بن سيار ، فقصدوه ، وحارب أصحابه دونه ، فقتل منهم طائفة كثيرة : منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل فى فيه فقتله ، ويقال : بل أسر الجهم ، فأوقف بن يدى سَلْم بن أحْوَزَ ، فأمر سلم بقتله ، فقال جهم : إن لى أماناً من أبيك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب وأنزلت عيسى بن مريم ما نجوت ، والله لو كنت فى بطنى لشققت بطنى حتى أقتلك ، وأمر ابن مُيسّر فقتله (١) .

ونريد أن نقف بك قليلا عند الجهم بن صفوان والحارث بن سريج الذى كان الجهمُ يَحْطِبُ فى حَبْله ، فقد رابَنَا أمرهما جميعاً ، وأول هذه الريبة أننا رأينا الحافظ ابن كثير يقول « فى سنة ثمان وعشرين ومائة كان مقتل الحارث بن سريج ، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقصَ كان قد كتب إليه كتابَ أمان ، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ، ورجع عن مُوَالاة المشركين إلى نُصْرة الإسلام وأهله » وإذن فالحارث بن سُرَيج كان رجلا غير صحيح الدين ولا سليم العقيدة ، كان يوالى المشركين ، ويذهب إليهم يستنصر بهم على أهل الإسلام ، ويحرضهم على قتالهم ، وجَهْمُ بن صفوان كاتبُ الحارث بن سريج ، ولا يكتفى بأن يكون كاتبه بل هو يقرأ على الناس كتاباً فى فَضْل الحارث بن سريج ، ومعنى هذا أنه داعية له ، ورَجُلٌ هذا شأنُه لا بد أن يكون صادراً فى مقالتِه عن فسادِ طَوِيَّة وسوء دِخْلَةٍ ، وهذا يفسر لنا العبارة التى يقولها المقريزى عنه « فأورد على أهل الإسلام شكوكا أثَّرَتْ فى الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولَّد عنها بلاء كبير » وهذا كله يؤيد ماذهب إليه من أن رؤوس النحل التى طرأت على الإسلام — بعد نقائه وصفاء جوهره — كانوا دُخَلاء فيه ، وكان أول غرضهم أن يُفْسدوا

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/٢٦ و ٢٧)

ما يريد الله أن يظهره على الدين كله ، والله غالب على أمره ، ولن يشاقّ اللهَ أحدٌ إلا قَصَمه .

وقد حفظ لنا التاريخ اسم كتابين أُلِّفَا فى أوائل القرن الثانى ، فى الرد على بعض مَنْ ظهر فى هذه المدة بنِحْلَةٍ تخالف ما عليه جماعةُ المسلمين ، فأما أحد الكتابين فكتاب « الرد على القَدَرية » صنفه شيخ المعتزلة وزاهدهم عمرو بن عُبَيد (٨٠ ـ ١٤٤ من الهجرة) وأما الكتاب الآخر فكتابُ « أصناف المرجئة » لذى ألفه أولُ المعتزلة وأعجو بتهم واصِلُ بن عطاء مولى بنى ضبة ـ و يقال : مولى بنى مخزوم ـ المعروف بالغزَّال (٨٠ — ١٨١ من الهجرة)

* * *

— ٥ —

وفى أوائل القرن الثانى كان شر الخوارج قد استطار ، وكانوا قد أعلنوا أن مرتكب الكبيرة كافر مخلّد فى النار لا يخرج منها أبداً ، وكان جماعة المسلمين يقولون : إنه مؤمن و إن فَسَق بارتكاب الكبيرة ، وكان أبو حُذَيفة واصل بن عطاء يجلس إلى الحسن البصرى و يتلمذ عليه ، فجرى يوماً ذكر هذه المسألة ، فقال واصل : أنا أقول فى مرتكب الكبيرة من هذه الأمة : إنه لامؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، فغضب الحسن لذلك ، وطرده من مجلسه ، فاعتزل عنه وجلس فى ناحية من المسجد ، وانضم إليه عمرو بن عبيد وجماعة ، فقيل لهما ولأتباعهما : المعتزلون ، أو المعتزلة(١) .

فأما واصل بن عطاء « فكان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينا ، قال أبو العباس المبرد فى حقه فى كتاب الكامل : كان واصل ابن عطاء أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة فى الراء ، فكان يخلص

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/١٣٠ و ٢٤٨ ـ ٥/٦١ بتحقيقنا)

كلامه من الراء ، ولا يُفْطَن لذلك ؛ لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه ، ففى ذلك يقول شاعر من المعتزلة ـ وهو أبو الطروق الضبي ـ يمدحه بإطالة الخطب واجتنابه الراء على كثرة ترددها فى الكلام حتى كأنها ليست فيه :

عليم بإبدال الحروف ، وقامع لكل خطيبٍ ، يغلبُ الحقَّ باطله

وقال آخر :

ويجعل البرَّ قمحا فى تصرفه وخالَفَ الراء ، حتى احتال للشعَرِ

ولم يُطِقْ «مطرا» والقولُ يعجله فعاد بالغيث إشفاقا من المطر

ولم يكن واصل بن عطاء غزَّالا ، ولكنه كان يلقبُ بذلك لأنه كان يلازم الغزَّالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن ، وله من التصانيف كتاب « أصناف المرجئة » وكتاب فى التوبة ، وكتاب « المنزلة بين المنزلتين » وكتاب « معانى القرآن » وكتاب « الخطب ، فى التوحيد والعدل » وكتاب « ماجرى بينه وبين عمرو بن عبيد » وكتاب « السبيل إلى معرفة الحق » وكتاب فى « الدعوة » وكتاب « طبقات أهل العلم والجهل » وغير ذلك ، وكان مولده بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى سنة ثمانين ، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة »[1]

وأما عمرو بن عُبَيْد فهو « أبو عثمان عمرو بن عُبَيْد بن باب ، المتكلم ، الزاهد ، مولى بنى عقيل ، وكان جدُّه بابٌ من سَبْى كابل إحدى بلاد السند ، وكان عمرو شيخَ المعتزلة فى وقته ، وكان آدَمَ ، مَرْبوعاً ، بين عينيه أثر السجود ، وسئل الحسنُ البصرى عنه فقال : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدَّبَتْه ، وكأن الأنبياء رَبَّتْهُ ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وإن نُهِىَ عن أمر كان أتْرَكَ الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبهَ بباطنٍ منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه . ودخل عمرو بن عبيد يوماً على أبى جعفر المنصور فى خلافته

---

(١) انظر الترجمة رقم ٧٣٩ في وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/ ٦٠ بتحقيقنا)

ـ وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة ، وله معه مجالس وأخبار ـ فقربه أبو جعفر وأجلسه ، ثم قال له : عِظْنى ، فوعظه فكان فيما قاله له : إن هذا الأمر الذى أصبح فى يدك لو بقى فى يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك، فاحذر ليلة تتمخض بيوم لا ليلة بعده ، فلما أراد النهوض قال أبو جعفر : قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، فقال : لا حاجة لى فيها ، قال : والله تأخذها ، فقال: لا ، والله لا آخذها ، وكان المهدى بن أبى جعفر حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت عمرو بن عبيد إلى المنصور وقال : مَنْ هذا الفتى ؟ قال : هو ولى العهد أبنى المهدى، فقال عمرو : أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار ، وسميته باسم ما استحقه ، ومَهَدْت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه ! ثم التفت عمرو إلى المهدى فقال : نعم يابن أخى ، إذا حلف أبوك أحْنَثَهُ عُمك ، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك ، فقال له المنصور : هل من حاجة ؟ قال : لا نبعث إلى حتى آتيك ، قال : إذاً لا تلقانى ، قال : هى حاجتى ، ومضى ، فأتبعه المنصور طَرْفَهُ وهو يقول :

كُلُّكم يمشى رُوَيْدْ كلكم يطلب صَيْدْ
غـــير عمرو بن عُبَيْدْ

وكانت ولادة عمرو فى سنة ثمانين ، وتوفى بمرّان وهو راجع إلى مكة فى عام أربعة وأربعين ومائة ، ورثاه المنصور بقوله :

صلّى الإله عليك من مُتوَسِّدٍ قبراً مررت به على مَرّانِ
قبراً تضمَّنَ مؤمناً مُتحَنِّفاً صَدَقَ الإلهَ ودَان بالعرفان
لو أن هذا الدهْرَ أبقَى صالحاً أبقى لنا عمراً أبا عثمانِ
ولم يسمع بخليفة يَرْثى مَنْ دونه سواه[1] »

وأصبحت المعتزلة بعد هذين الرجلين فرقة لها أصول وقواعد ، وتتابعت

---

(١) انظر الترجمة رقم ٤٧٦ من وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ١٣٠ بتحقيقنا)

طبقاتها ، وقد رزقهم الله تعالى فى كل عصر بجماعة من فحول أهل العلم وذوى البَرَاعة فى التمحيص ، فنشروا آراء الفرقة ، واستعْلَوْا بحججهم على كل ذى حجة ، واتصل منهم قومٌ بالخلفاء والأمراء فاتخذوا من جاههم وسيلة لإعلاء كلمتهم وأخذِ الناس بما يذهبون إليه .

فعن عمرو بن عبيد وأصحابه أخذ بشر بن المعتمر ، وأبو الهذيل محمد بن الهذيل ابن عبد الله بن مكحول المعروف بالعلاف[1] ، وعن أبى الهذيل أخذ ابنُ اختِهِ إبراهيمُ بن سيار المعروف بالنظام ، وهشام بن عمرو الشيبانى المعروف بالفُوَطى ، وأبو يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصرى ، وعن النظام أخذ أبو عثمان عمرو ابن بحر بن محبوب ، الكنانى ، البصرى ، المعروف بالجاحظ ، والقاضى أبو عبد الله أحمد بن فرح بن جرير الإيادى ، المعروف بابن أبى دؤاد[2] ، وعن أبى يوسف الشحام أخذ محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حُمْرَان بن أبان المعروف بالجُبَّائى[3] ، وعن الجاحظ أخذ أبو موسى بن صبيح ، وعن أبى موسى أخذ جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وعنهما أخذ محمد بن عبد الله الإسكافى .

وعن أبى على الجبائى أخذ ابنُه أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، كما أخذ عنه شيخ أهل السنة والجماعة — فيما بعدُ — أبو الحسن على ابن إسماعيل الأشعرى ، ويقص العلماء مناظرة جرت بين أبى على الجبائى وتلميذه أبى الحسن الأشعرى كانت نهاية لتلمذة أبى الحسن عليه[4] .

---

(١) له ترجمة فى وفيات الأعيان لابن خلكان رقم ٥٧٨ ، وله ترجمة فى « نكت الهميان » للصفدى (ص ٢٧٧)

(٢) له ترجمة فى وفيات الأعيان رقم ٣١

(٣) له ترجمة فى وفيات الأعيان رقم ٥٧٩

(٤) انظر هذه المناظرة فى ترجمة الجبائى من وفيات الأعيان (٣/٣٩٨ بتحقيقنا).